٧ ــ الحقائق الصلبة والنموذج المعوج

دراسة في التحيّز المعلوماتي

د. عبد الوهاب المسيري

من الوقائع الأساسية في التاريخ الغربي الحديث واقعة الإبادة النازية ليهود أوروبا التي يطلق عليها اصطلاح «الهولوكوست» أي المحرَقة وقد تحولت هذه الواقعة في الوجدان الغربي إلى ما يشبه الأيقونة: حالة يتطابق فيها الدالّ مع المدلول تمامًا، وتجسُّد لشيء ما لا يمكن أن يفهمه المرء تمامًا، ولكنه مع هذا عليه أن يقبله دون تساؤل.

هذا الشيء هو أن اليهود وحدهم هم ضحايا العدوان الألماني النازي وأنه قد ذُبح منهم ستة ملايين، وأنهم لهذا السبب لابد من إعطائهم فلسطين.

وثمة تحيزات معرفية تاريخية عديدة كامنة في هذه الأيقونة الغريبة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

١ ـ الإبادة النازية ليهود أوروبا ليست واقعة استثنائية في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة فممثلو هذه الحضارة قاموا بإبادة الملايين في الأمريكتين وأفريقيا، ولذا فجعْلها أمرًا استثنائيًا هو من قبيل إسقاط صفة أساسية لصيقة بهذه الحضارة ذات التجربة الامبريالية الإبادية.

٢ ـ لم يكن اليهود وحدهم هم ضحايا الإبادة النازية، أو يجب ألا ننسى السلاف والغجر والمعوَّقين وغيرهم من الملايين الذين صُنفوا على أنهم مادة بشرية غير نافعة «أفواه تأكل ولا تنتج» useless eaters.

والهدف من التحيزين السابقين هو التلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي، فبدلاً من رؤية ظاهرة الإبادة النازية ليهود العالم الغربي على أنها جزء من نمَط أكبر (حضارة إبادية تفتك بالآخر أينما كان إن وقف في طريقها) فإنه يتم تخصيصها بحيث تصبح جريمة ألمانية نازية وحسب، بما يعني تبرئة أوروبا والحضارة الغربية منها.

كما أن الجريمة تقدَّم على أنها موجهة ضد اليهود فَحَسْب على إطلاقهم وفي هذا تعميم، فضحايا الإبادة ليسوا كل اليهود وإنما يهود أوروبا فحسب، وشتان بين أن يتحدث المرء عن يهود العالم ويهود العالم الغربي، فالحديث عن يهود العالم بشكل عام يُفقد الظاهرة خصوصيتها الأوروبية تمامًا كما أفقدها التخصيص البعد نفسه. ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء من نمَط حضاري غربي يظهر في أن الحل الغربي لجريمة النازية هو جريمة أُخرى لا تقل بشاعة عن الأُولى ـ خلق دولة إسرائيل ـ فالرد الغربي على «آوْشفِتْزْ» هو «دير ياسين».

إن اللحظة النازية في الحضارة الغربية لم تكن نزوة ولا انحرافًا ولا استثناءً، وإنما كانت لحظة عبّر فيها النموذج الغربي الامبريالي عن نفسه بدرجة عالية للغاية من التبلور. ولكن الذي حدث هو أن ساحة نشاطه أصبحت أوروبا نفسها، فالامبريالية التي حولت العالم بأسره إلى مادة استعمالية وساحة لعمليات الغزو وأبادت سكان قارتين (الأمريكتين) ونقلت الملايين من أفريقيا عَبْرَ الأطْلَنْطي وأبادت الملايين منهم إبان هذه العملية وأخضعت ملايين آسيا وسخرتهم، هذه الامبريالية ذاتها في حالة النازية انكفأت على أوروبا وسارت جيوشها هناك وأبادت عشَرات ملايين الغربيين، فظهرت الفضيحة وسارع الغرب بتخصيص الجريمة وجعلها جريمة ألمانية وحسب، مع أن ما قامت به الجيوش النازية والدولة النازية في أوروبا هو ذاته الذي قامت به جيوش أوروبا (والولايات المتحدة) منذ القرن السادس عشر حتى اليوم.

بلى إنه من المفارقات أن الأيديولوجيا الصهيونية ـ التي يعتبرها البعض نقيض الصهيونية! ـ إن هي إلا تعبير عن نفس النموذج المعرِفي

الامپريالي، ولذا فثمة نقاطِ تَشابُه بينها وبين النازية.

١ ـ فالصِهيونية هي الأُخرى أيديولوجيًا ترى العالم باعتباره مادة استعمالية لا قداسة له يمكن استخدامه ومن ثمَ تتحول فلسطين إلى مجرد رقعة أرض تصلح للاستيطان الصهيوني. كما أن البشر يصبحون مادة استعمالية ولذا يمكن نقل اليهود بكل بساطة وغرسهم في أرض فلسطين، ويمكن بنفس البساطة طرد أهلها منها.

٢ ـ والصهيونية تعتمد القوة وسيلة لتنفيذ رؤيتها، فالعالم غابة لا توجد فيه قيم مطلقة، ولا تخرج الحكمة إلا من أفواه البندقية ولا تستند الحقيقة إلا إلى برميل بارود.

٣ ـ تنطلق الصهيونية من فكرة القومية العضوية (التي انطلق منها النازيون) التي تؤكد على روابط الدم والتراب وعلى أن شخصية الإنسان.. تتشكل من خلال رابطة عرقية، وهي فكرة تجعل من الدين والقومية وجهان لعملة مادية واحدة، بحيث يخلع الشعب على نفسه قداسة معينة، ويمنح نفسه حقوقًا مطلقة.

٤ ـ تقديس الدولة باعتبارها وَحْدَها تجسيدًا لإرادة الشعب العضوي وللهدَف الأَسْمى من وجودَه، فهي القيمة المطلقة الوحيدة.

ولكن العلاقة بين النازية والصهيونية تتجاوز العلاقة الفكرية والتماثل البنيوي، فثمة علاقة فعلية قوية تم نشر العديد من الوثائق والدراسات عنها مما يبين بما لا يقبل الشك مدى قوتها واستمرارها، وكان لهذه العلاقة مستويات عدة، ولنبدأ بأدناها: وهو كيف استفاد النازيون من الدعاية الصهيونية؟

قام الصهاينة قبل ظهور النازية في ألمانيا بدعاية مكثَّفة طرحوا فيها تصوُّراتهم «للشعب اليهودي» وهويَّته، ويرى بعض مؤرخي النازية أن هذا النشاط قد أسهم في خلق مناخ ثقافي أشاع هذه الأفكار وأسبغ عليها كثيرًا من المصداقية وفي أثناء محاكمات «نورمبرج» كان الزعماء النازيون يؤكدون الواحد تلوَ الآخر أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال

الأدبيات الصهيونية التي كانت تنحو منحى متطرفًا حتى من منظور صهيوني. ويظهر هذا أكثر ما يظهر فيما يسمى «قرار بوزن» الذي أصدره فرع المنظمة الصهيونية في ألمانيا عام ١٩٢٢ (أي قبل اكْتِمالِ ظهور الحركة النازية بعدة سنوات) وقد جاء في هذا القرار أنه نظرًا للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الصهيوني يعلن أنه من الواجب على كل صهيوني، ولا سيما الذين يتمتعون باستقلال اقتصادي، أن يجعل الهجرة جزءًا عضويًا من برنامج حياته[١]. وقد أصبح هذا القرار هو الإطار العَقَدي للصهيونية الألمانية التي تخلّت بفضله تمامًا عن أي أبعاد ذات طابع خيري، وأصبحت أيديولوجية قومية عضوية.

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجية الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية، أي تصفية الأقليات تمامًا وإنشاء الدولة الصهيونية. وابتداء من العشرينات بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية الخالصة وتُنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية. فقد ألقى جولدمان عام ١٩٢٠ خطابًا في جامعة هايدلبرج بيّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية، وفي إسقاط الحكومة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، وأصر على أنه ليس بين يهود ألمانيا والشعب الألماني عناصر مشتركة، ومن ثَم فإن للألمان الحق في منع اليهود من الاشتراك في شؤون الشعب العنصري الألماني. وأما وايزمان فقد شبه علاقة الألمان باليهود باستعارة استقاها من عملية الهضم، إذ قال إن كل بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عددًا محددًا من اليهود لا يتجاوزه، وفي رأيه أنه كان في ألمانيا عدد أكبر من اللازم من اليهود[٢]، أي فائض بشري يهودي. وفي نفس الفترة وصف الزعيم الصهيوني نمعن كلاتزكين

---

(١) Stephan M. Poppel, *Zionism in Germany, 1897-1933: The Shaping of a Jewish Identity* (Philadelphia: The Jewish Publication Society, 1977), p. 48.

(٢) Benyamin Matovu, «The Zionist Wish and the Nazi Deed», *Issues,* Vol. XX, Winter, 1966-67, pp. 10-11.

اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، «ولذا من حقهم أن يحاربوا ضدنا من أجل تماسكهم القومي»[٣]. وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هِرتزِل ونوردو الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم، والصهيونية الألمانية على وجه التحديد، ولكنها تكتسب أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك.

وإذا أخذنا في الاعتبار هذا التوجه الصهيوني فإنه لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيرًا من الصهاينة على استعداد لتفهم وجهة نظره. فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم بِرنز في كانون الثاني/ يناير ١٩٣٣ أن لا مكان الآن يستطيع اليهود أن يختبئوا فيه، «وبدلاً من الاندماج نرى نحن الصهاينة أنه يجب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعِرق اليهودي»[٤] وحينما قام النازيون في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرون أنها هدامة كتبت **اليوديشه روندشاو** Judische Rundschau (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيرًا من المؤلفين اليهود «خونة» تنكروا لجذورهم[٥]. لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية. وفي نبرة ترحيب واضحة صرح إميل لودڤِك (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بآلاف اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أُخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها، ولذا «فأنا شخصيًا ممتن لهم»[٦] وترد نفس الفكرة النازية/ الصهيونية على لسان

---

(٣) Lenni Bernner, *Zionisism in the Age of the Dictators: A Reappraisal* (London: Croom Helm, 1983), p. 30.

(٤) Klaus Polkehn, «The Secret Contacts, Zionist-Nazi Relations, 1933-1941», *Journal of Palestine Studies,* Vol. V. nos. 3-4, Issues 1986, p. 85.

(٥) Edwin Black, *The Transfer Agreement: The Untold Story of the Secret Pact Between the Third Reich and Jewish Palestine* (New York: Macmillan, 1984), p. 173.

(٦) Brenner, *Zionisism in the Age of the Dictators*,Op. Cit. p. 59.

الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا، ويضيف: «أنا أيضًا مثل هتلر أومن بفكرة الدم» وقد تَابَعَ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمان) بكثير من القلق نشاطات الصهاينة وتصريحاتهم واعتبروها «طعنة من الخلف» في الحرب ضد الفاشية[٧].

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي صدر في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٣٣ بعد وصول النازيين إلى السلطة («إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في ألمانيا الجديدة») Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im neuen deutschen Staat وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أرسلت مباشرة إلى الحزب النازي وهتلر (بتاريخ ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٣٣) وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومي، ثم تطرح أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. ثم تنتقل المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي فتقوم بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل، وتبين أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذِّرة في تقاليدهم (الحضارية) الخاصة. (أي أنهم قومية عضوية منبوذة توجد خارج أرضها). وبعد أن تتبنى المذكرة هذا النقد النازي لليهود تنتقل لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية فتؤكد أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجَمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تتقبل مبدأ العرق، أحد ثوابت الرؤية النازية، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة، ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٠.

والعرقية. وتقوم بتعريف اليهود تعريفًا عرقيًا، مُبيِّنة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفي المقترَح الذي يمكن أن يتحول إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحلٍ للمسألة اليهودية يحوز على رضا الدولة الجديدة ويتفق مع خَطها، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية ويتبع النموذج النازي «وعلى تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها» بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم، فهَدف الصهيونية هو تنظيم هجرة يهود إلى فلسطين. وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد: اليهودي المتجذِّر في تقاليده الرَّوحية، الواعي بنفسه الذي لايحس بالحرج تجاه هويته، وهو نموذج مختلف تمامًا عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له والذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني، وهو مختلف أيضًا عن اليهود المندمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية وللعرق اليهودي وللماضي اليهودي. [ويلاحظ أن النموذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي]. ثم تذكر المذكرة أن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكل أساسي. إذ أنه في مجال تناول المسألة اليهودية لا يوجد مكان للعواطف، فهي مسألة تهم كل الشعوب، والشعب الألماني على وجه الخصوص، في الوقت الراهن. وفي نهاية المذكرة/ الإعلان شجَب الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر، التي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصاديًا.

ونشرت **يُوديشة روندشاو** مقالاً تعلن فيه عن استعداد الصهاينة للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم «حيث أن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب»[٨]. وهذا

(٨) Polkhen, «The Secret Contacts», p. 59.

الموقف امتداد لموقف هِرْتزِل حين ميز بين التعصب الديني القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) ومعاداة اليهود الحديثة التي وصفها بأنها «حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها»[٩]. ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول لمعاداة اليهود المنهجية الرشيدة أو التي تم ترشيدها. وقد تبنى هتلر موقفًا مماثلاً حين ميز هو الآخر بين «معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المعقولة أو المنهجية، إذ تنتهي الأُولى بالمجازر، وأما الثانية فتنتهي بطرد جميع اليهود من ألمانيا»[١٠]. وقد حدد هتلر عام ١٩٢٠ مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة، وهي القومية العضوية، فقال ردًا على سؤال وجهه إليه أحد سامعيه عن حقوق اليهود الإنسانية: «فليبحث اليهودي عن حقوقه الإنسانية حيث ينتمي، في دولته فلسطين»[١١]، وفي العام نفسه قرر روزنبرج ضرورة «مساندة الصهيونية بكل نشاط حتى يتسنى لنا أن نرسل سنويًا عددًا محددًا من اليهود إلى فلسطين، أو على الأقل عبر الحدود»[١٢]. ولذا فإنه حينما استولى النازيون على السلطة سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية، اجتماعاتٍ كانت أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف، أي السماح لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل[١٣]. كما أن المجلات الصهيونية كانت المجلات الوحيدة غير النازية المسموح لها

---

(٩) Theodor Herzl, *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, 5 volumes, (ed.) Raphael Patai (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 196), p. 196.

(١٠) علي محافظة، **العلاقات الألمانية ـ الفلسطينية، من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية**، ١٨٤١ ـ ١٩٤٥، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١، ص ١٩٥.

(١١) Black, The Transfer Agreement, (op. cit) p. 172.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

(١٣) Kurt Grossman, «Zionists and Non-Zionists Under Nazi Rule in the 1930's», Herzl Year Book: *Essays in Zionist History and Thought*, IV, (ed.), Raphael Patai (New York: Herzl Press, 1961-1962).

بالصدور في ألمانيا، وكانت تتمتع بحريات غير عادية، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة. وكما يقول أدوين بلاك[١٤] مؤرخ اتفاقية هَعَفَرا Haavra (أي النقل): «إن الصهيونية هي الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون». وحتى عام ١٩٣٧ لم يتأثر عدد صفحات **اليُودِيشه روندشاو** بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تَقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات المجلات الآرية[١٥]. كما نشرت دور النشر الألمانية، بشكل قانوني كامل، أعمال حاييم وايزمان وبن جوريون وآرثر روبين[١٦].

ولم يتوقف التعاون عند هذا الحد، فمن المعروف لدى مؤرخي الحركة الصهيونية والدولة النازية أنه تم توقيع معاهدة بينهما تسمى الهَعَفراه.

و«الهَعَفراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانْسفِر». والنقل هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية. والهَعَفراه هو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات. يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأي طريقة، بما في ذلك التعاون مع النظام النازي، كان صهاينة الخارج التَّوطُنيون ويهوده مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا بما في ذلك تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. وكان من أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صموئيل أونترماير Samuel Untermeyer المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود بقيادة الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود، كما أسس منظمة دولية اسمها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» (في أمِسْتِرْدام)

---

(١٤) مؤلف أمريكي يهودي، أسس **مجلة شيكاغو مَنثلي** *Chicago Monthly* ويساهم بمقالاته للشيكاغو ترَيبيون *Chicago Tribune* وله عدة دراسات في الموضوعات اليهودية والإسرائيلية.

(١٥) Black, *The Transfer Agreement*, op. cit. p. 175.

(١٦) Polkhen, «The Secret Contacts», op. cit. p. 62.

للتنسيق بين كل المنظمات الداعية إلى المقاطعة. وقد شكلت المقاطعة، ولا سيما في الشهور الأُولى، تهديدًا خطيرًا للنظام النازي. ويقول إدوين بلاك إنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة فلربما كانت نجحت في تعبئة الجماهير المسيحية وانضمت بعض الحكومات إليها ولم ينجح النازيون ولا سيما في الشهور الأُولى من تسلمهم السلطة في الإمساك بزمام الأمور. «إن استجابة مباشرة وموحَّدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣»[١٧].

ولكن المستوطنين كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم، فسافر حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٣) الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها. وكانت المسألة ـ بالنسبة إلى المستوطنين ـ ملحَّة للغاية، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه الرأسمالي اليهودي المتوقع[١٨]. (تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام). وكان هنريش وولف Heinrich Wolf قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجو له وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيدًا وموضحًا المزايا التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم[١٩]. وفي النهاية تم توقيع الاتفاق الذي كان يقضي:

بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» [هعفرا transfer] جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة. وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله إلى حساب مغلق يُفتح في بنك الرايخ الألماني باسم شركة «هانوطياع» ويسمح لها باستعماله فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا وتصديرها إلى فلسطين. وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع، وتسدد بأثمانها المبالغ

---

(١٧) Black, *The Transfer Agreement*, op. cit. p. 380.

(١٨) Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators*, op. cit. p. 62.

(١٩) Black, *The Transfer Agreement*, op. cit. p. 159-166.

المستحقَّة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها[٢٠].

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لم يكونوا ينوون الهجرة مباشرة ويريدون مع هذا «تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطوّرها» أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ٣ ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أيًّا كان نوعها. ثم حل البنك البريطاني ـ الفلسطيني ممثلاً للوكالة اليهودية محل «شركة هانوطياع»[٢١]. وأثناء تنفيذ الاتفاقية اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المستوطَن الصهيوني، كما أن المستوطنين الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة الهيكل) قاموا بالضغط ولكن دون جدوى، إذ إن هتلر نفسه قرر أنه يجب الاستمرار في العمل بالاتفاقية[٢٢].

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان من المنظور النازي قصم ظهر المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم. وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم «أحسن ضمان لأقوى تأثير [مضاد] لإجراءات المقاطعة اليهودية» «للبضائع الألمانية»[٢٣]. كما أن القنصل الألماني العام في القدس أكد الفكرة نفسها حين قال: «بهذه الطريقة يمكن أن نقوم [نحن الألمان] بحملة ناجحة ضد المقاطعة اليهودية [في الخارج] ضد ألمانيا، وقد يمكننا أن نحدث ثغرة في الحائط[٢٤]. ولاحظ القنصل أنه في الصراع

---

(٢٠) صبري جريس: **تاريخ الصهيونية** (١٨٦٢ ـ ١٩٤٨)، الجزء الأول، التسلل الصهيوني إلى فلسطين، (١٨٦٢ ـ ١٩١٧)، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٧، ص ٨٢.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢٢) Polkhan, «The Secret Contacts», op. cit. p. 68.

(٢٣) صبري جريس: **السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين** (١٩٣١ ـ ١٩٣٦)، نمو الهجرة والاستيطان، ص ٨٣.

(٢٤) Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators*, op. cit. p. 61.

الدائر بين اليهود وصهاينة التوطُّنيين بدأت موازين القوي تتغير لصالح المستوطنين.

«ففلسطين هي التي تعطي الأوامر، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول، وسيترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة[٢٥].

وقد أيده في ذلك فريتز رايخرت عميل الجستابو في فلسطين حين قال:

«إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع من فلسطين توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة لألمانيا.. لقد دمرنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهَعَفرا في فلسطين، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس، أرسل برقيات إلى لندن [أحدثت الأثر المطلوب][٢٦].

ويقول إدوين بلاك:

«إن احتمالات انهيار [الاقتصاد الألماني] بدأت بالتناقص بسرعة بمرور الوقت، فحينما عقد أونترماير اجتماعًا لاتحاده الدولي في أمستردام في أواخر تموز/يوليو ١٩٣٣ كانت الفرصة لا تزال جيدة. ومع نهاية آب/أغسطس، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة.

فماذا حدث في هذا المؤتمر؟ لعل دراسة الوقائع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين والتوطينيين، وكيفية إدارتها، وبعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي، فلقد وُقعت الاتفاقية بشكل مبدئي في آب/أغسطس ١٩٣٣ وسُويت كل النقط الفنية المعلقة في آب/أغسطس بعد افتتاح

---

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ ـ ٣٤٣.

جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في پْراجْ (تشيكوسلوفاكيا). وقد أدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر، ولذا ركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية. وبعد افتتاح جلسات المؤتمر ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة عن يهود ألمانيا وبؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة.

ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكاسب الإعلامية التي يطمحون إليها، ولذا فقد أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ آب/ أغسطس، وهو اليوم المحدد لمناقشة وضْع يهود ألمانيا في المؤتمر، وتناقلت صحف أوروبا الخبر. وقد ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة أُخرى قال فيها: «إن اليهود يحترمون أسپانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأنه من الأفضل أن يتم خروج كامل لليهود عن أن يتم إهانتهم على هذا النحو». ورغم أن الألفاظ غاضبة شكلاً إلا أن مضمونها نازي صهيوني، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود، وإنما عن خروجهم الكامل والنهائي.

وقدم الصهاينة التصحيحيون قرارًا محددًا خاصًّا بالمقاطعة، ولكن العمَّاليين نجحوا في فرض قرارهم. وكان النازيون قد أوقفوا مجلة **يُوديشه روندشاو** عن الصدور مدة ستة أشهر، فرُفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تتباهى فيه بأن المؤتمر الصهيوني هَزَمَ بأغلبية ساحقة اقتراح المراجعين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة. وصدرت الصحف النازية مرحبة هي الأُخرى بموقف المؤتمر الإيجابي.

وحينما افتُتحت جلسة يوم ٢٥ آب/ أغسطس انهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصداقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تمامًا في نهاية الأمر، فصَعّد النازيون من حملتهم الإعلامية الذكية وأعلنوا يوم ٢٧ آب/ أغسطس عن صفقة برتقال ضخمة مع المستوطن الصهيوني (أشار إليها أحد الصهاينة التوطُنيين «بالبرتقالة الذهبية» قياسًا على «العجل الذهبي»)، وأرسل أُنتِرماير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت وهدد بأنه إذا

كان الأمر حقيقة ولم يتم إلغاء الصفقة فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستنسحب من المنظمة الصهيونية. وفي يوم ٣١ آب/ أغسطس نشر الرايخ النص الكامل لاتفاقية الهَعَفراه فقوبل الحدث بعدم التصديق الكامل من جانب اليهود التوطُنيين ونشرت **الجِوِشْ كرونيكل** النص على أنه نكتة نازية رائعة، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أي علاقة بالموضوع، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية.

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث[٢٨] على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ أيلول/ سبتمبر. ولما كانت أنبَاء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لَبس أو إبهام فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن. وكما يقول إدوين بلاك: «كانت هذه هي الفرصة الأخيرة» أمام اليهود والصهاينة لكي يتخذوا قرارًا حاسمًا (ولا سيما أن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة بالتزايد). ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بخصوص المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني واكتفى بتأييد المعارضة التلقائية بين الجماهير. وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف ستيفن وايز الزعيم الصهيوني الأمريكي، وكان قد أفشل قبلاً اجتماع أُنتِرماير في أمستردام ولندن. وحينما عرضت الاتفاقية مرة أُخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) بهدف نقضها رُفضُ مشروع القرار وتقرر «وضع كافة نشاطات الهَعَفراه تحت إشراف الإدارة الصهيونية»[٢٩].

وقد حققت اتفاقية الهَعَفراه نجاحًا باهرًا من وجهة نظر النازيين والصهاينة. وأما بالنسبة إلى النازيين فـ «قد نجحوا في تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود»[٣٠]، وأما بالنسبة إلى المستوطنين فتُعد فترة الهَعَفرا أهم فترة في تاريخ المستوطن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية

---

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ ـ ٣٧١.

(٢٩) جريس: **السنوات الخمس السمان**، ص ٨٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٨٣

المطلوبة وبالرأسمال اللازم للبنية التحتية. وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذين هاجروا إلى فلسطين في الفترة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٤١ بموجب الاتفاقية، ٥٢,٣٠٠ يشكلون ٢٥ ٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة ذاتها[٣١]، وكان من بينهم ٦,٥٢٩ رأسماليًا يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمستوطن[٣٢] و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة المتوسطة المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين ومن المهندسين والصناعيين[٣٣].

وقد شجع نجاح الهَعَفراه الكبير على تكرار التجربة فأُنشئت شركات أُخرى على غرارها مثل شركة الشرق الأدنى والأوسط التجارية Near and Middle East Commercial Co. واختصارها NEMICO (أنشئت عام ١٩٣٥) وكان مجال نشاطها البلاد العربية المجاورة[٣٤]. وحسبما جاء في كتاب ليني برِنرَ Lenni Brenner «**الصهيونية في زمن الدكتاتورية**» Zionism in the Age of the Dictators فقد هدد الاتحاد الصهيوني في مصر بنشر تفاصيل الاتفاق الجديد وبفضح تعاون الصهاينة مع النازيين إن لم ترجِع المنظمة الصهيونية عن الاتفاق، فآثرت المنظمة التراجع للحفاظ على المشروع الأكبر وهو الهَعَفرا[٣٥].

هذه هي الحقائق الصلبة كما سجلتها المصادر الغربية ذاتها الصهيونية وغير الصهيونية. اليهودية وغير اليهودية، وهي حقائق أرْشيفية، أي توجد في مَحْفوظات وزارات الخارجية في الغرب التي تمتلك أحدث نظم المعلومات وأسرع الطرق لاستردادها! فلم اختفَت؟ ولم لا يشير إليها أحد؟ لا يمكن تفسير هذه الحقيقة إلا على أساس أن العالم الغربي يرى نفسه ويرى العالم من خلال نموذج معين، هذا النموذج له تحيزاته الواضحة

---

(٣١) محافظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية**، ص ٢٠٦.

(٣٢) Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators*, op. cit. p. 65.

(٣٣) جريس، **السنوات الخمس السمان**، ص ٨٣.

(٣٤) محافظة، **العلاقات الألمانية الفلسطينية**، ص ٢٠٥.

(٣٥) Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators*, op. cit. p. 72.

والمستقرة ولذا فهي تستبعد المعلومات الصلبة إن تناقضت مع النموذج المعرِفي ومع الرؤية للذات، ولعل هذا ينبهنا إلى شيء في غاية الأهمية وهو أن تراكم المعلومات لا يتم بطريقة بريئة وإنما يتم من خلال نموذج معلوماتي متحيز (وليس صلبًا وإنما معوج إن صح التعبير)، هذا النموذج هو الذي يقرر ماذا يستحق الرصد والتسجيل وماذا لا يستحق؟ وماذا يجب أن يشغل المركز وماذا يجب أن يُهمس؟

وتعاون الصهاينة مع النازيين هذا التعاون التام هو معلومة من منظور هذا النموذج، لا تستحق سوى التهميش وهذا ما حدث لمعلومة أُخرى، صلبة في غاية الصلابة وردت في الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica تحت مدخل عنوانه Muselman أي مسلم بالألمانية في الجزء الثاني عشر، وقد ورد في هذا المدخل أن أي يهودي كان يتقرر حرقه في أفران الغاز كان يسمى «مسلمًا» أي أن أوروبا حينما كانت تحرق اليهود كانت تراهم «مسلمين» (وكأنهم مسلمي البوسنة والهرسك).

إن هذه المعلومة تبين مدى قوة النموذج المتحيز وسيطرته على الواقع فعلى الرغم من أن النازيين كانوا يعرفون أنهم يحرقون اليهود (وغيرهم) إلا أن النمَط الإدراكي كان يعرّف الآخر على أنه المسلم، ولذا بدلاً من تسمية اليهودي «يهودي» سُمّي «مسلمًا» وكأن أوروبا لا تزال تخوض حروبها الصليبية (حروب الفرنجة) ضدنا، وهي أيضًا حروب تم أثناءها الهجوم على اليهود باعتبارهم مسلمين أو على الأقل حلفاء للمسلمين.

هذا من الناحية المعرفية والإدراكية، أما من الناحية المعلوماتية فإننا نطرح السؤال مرة أُخرى: كيف اختفت هذه المعلومة؟ ولم يُشر إليها أحد؟ رغم أنها تشكل مدخلاً كاملاً في «الموسوعة اليهودية»؟ ألا يستحق هذا بعض التأمل؟ والله أعلم.

* * *